الفصل السابع

(جحا)

بين الحقيقة والخيال

obeikan.com

obeikan.com

الفصل السابع

(جحا)

بين الحقيقة والخيال

لا أعتقد أنه من الممكن أن ندبج كتابا عن الضحك والنكتة ولا نعرج ولو قليلا إلي أهم الظواهر الإنسانية للضحك في عالمنا العربي، وهي شخصية جحا التي كانت ومازالت النموذج الأمثل للضحك والفكاهة في حياتنا، حتى أن كثير من نوادره وطرائفه أضحت كالحكم والأمثال الطريفة في أحاديثنا، هذه الشخصية التي تقترب من الخيال أحيانا، وتركن للحقيقة أحيانا أخري، فقد اختلف فيه الرواة والمؤرخون، فيصوّره البعض مجنوناً وقال البعض الآخر إنه رجل بكامل عقله ووعيه وإنه يتحامق ويدّعي الغفلة ليستطيع عرض آرائه النقدية والسخرية من الحكام بحرية تامة.

وما إن شاعت حكاياته وقصصه الطريفة حتى تهافتت عليه الشعوب، فكل شعب وكل أمة على صلة بالدولة الإسلامية صمّمت لها (جحا) خاصاً بها بتحوير الأصل العربي بما يتلاءم مع طبيعة تلك الأمة وظروف الحياة الاجتماعية فيها. ومع أن الأسماء تختلف وشكل الحكايات ربما يختلف أيضاً، ولكن شخصية (جحا) المغفّل الأحمق وحماره هي هي لم تتغيّر، بل إنك تجد الطرائف الواردة في كتاب (نوادر جحا) المذكور في فهرست ابن النديم (377هـ) هي نفسها لم يختلف فيها غير أسماء المدن والملوك وتاريخ وقوع الحكاية، فجحا العربي عاش في القرن الأول الهجري واشتهرت حكاياته في القرنين الثانى والثالث، وفي القرون التي تلت ذلك أصبح (جحا) وحكاياته الظريفة على كل لسان، وقد ألّفت مئات الحكايات المضحكة ونُسبت إليه بعد ذلك.

وبعودة بسيطة إلى التاريخ تكتشف أن كل هذه الشخصيات في تلك الأمم قد ولدت واشتهرت في القرون المتأخرة، وهناك شك في وجودها أصلاً، فأغلب المؤرخين يعتقدون أنها شخصيات أسطورية لا وجود لها في الواقع، وقد اشتهرت حكاياتها في القرون الستة الأخيرة، وربما أشهرها وأقدمها هو (الخوجة نصر الدين التركي) الذي عاصر تيمورلنك في القرن الرابع عشر كما يتضح ذلك من حكاياته الطريفة مع هذا الطاغية المغولى.

وقد ثبت في بعض المصادر العربية أن جحا عربي وُلد في القرن الأول الهجري وفيه يقول الشاعر عمر بن أبي ربيعة:

دلَّهتِ عقلي وتلعّبتِ بي... حتى كأني من جنوني جحا

وذكره الميداني في مجمع الأمثال وهو يتحدث عن الأمثال العربية في الحمق فيقول: أحمق من جحا.

ويري "سلامة موسى" في مقالته "جحا العاقل وجحا المغفل" أن لشخصية جحا مقام أصيل في الأدب، وهو شخصية أخرى غير جحا العامة.

فجحا الأدباء: رجل عاقل حكيم تخرج فكاهاته كما لو كانت فقاقيع الحكمة.

أما جحا العامة: فهو رجل مغفل يكاد لعاب البلاهة يسيل من فمه، لا ترتفع فكاهته إلى مقام النكتة ولا يضحك منها غير السذج الذين لم تتكون عندهم حاسة النقد أو على الأقل تمتد سباته.

وهاتان الشخصيتان جحا العاقل وجحا المغفل، تدلان على تعدد الأصل لهذه الفكاهات التي تعزى إلى ما نسميه "جحا"، والتفسير لهذه الظاهرة يمكن أن نصل إليه بأن نفرض أنه كان هناك رجل عاقل يرسل كلماته نكات حكيمة خفيفة كأنها فقاعات، فلما طارت شهرته صارت تعزى إليه فكاهات أخرى لا تبلغ مستواه ولكنها تنحو نحوه.

ثم انحدرت هذه الفكاهات إلى العامة فتشممت الحشيش الذي خيّمت أبخرته على العقول، وخدرتها، فكانت هذه الكلمات البلهاء التي نقرأها ويقال لنا أنها من صنع جحا.

ولما ساد الأتراك على الشعوب العربية أخذوا جحا معهم فيما أخذوه من كنوز العرب، فجعلوه "خوجا" وعزوا إليه نكات وفكاهات تدل على حكمته أو تغفله، ولكن ليس هناك شك في الأصل العربي لـ "جحا"، وفي أنه كان حكيماً قبل أن تنمو على اسمه وتستغل شهرته، فكاهات سخيفة لا يمكن أن تعزى إلا إلى الحشاشين.

ونحن هنا إزاء شخصية اختلطت بروايات التاريخ الصحيحة والكاذبة، كما حدث لشخصية "أبي نواس"، فقد كانت قدرة "أبي نواس" على النظم فوق المستوى، ولكن روحه كانت فاسقة. فأضاف إليه التاريخ بعد موته عشرات أو مئات من القصص التي تجري مجرى فسقه، ولكنها لا يمكن أن تكون صحيحة لأنها كانت على الدوام دون مستواه في الشعر.

كان جحا العاقل يقول حين سأله أحدهم: أيهما أفضل يا جحا؟ المشي وراء الجنازة أم أمامها؟ فقال جحا:

- لا تكن على النعش وامش حيث شئت.

وكان غافلاً أيضاً حين كان أحدهم يغتسل في بحيرة وسألوا جحا: إذا أراد الإنسان أن يغتسل فإلى أي جهة يجب أن يوجّه وجهه؟ فقال جحا: يوجّه وجهه إلى الجهة التي فيها ثيابه.

ومثل هاتين النكتتين يمكن أن نجدهما عند الجاحظ أو أي أديب عظيم، ولكن جحا المغفل، الحشاش، الذي ظهرت نكاته بعد وفاة جحا الأصلي بقرنين أو ثلاثة قرون، ينطق بالسخف الذي يُضحك الفارغين والسذج.

فمن هذا مثلاً:

ورث جحا نصف دار عن أبيه، فقال: أبيع حصتي من الدار وأشتري الباقي فتصير الدار كلها لي!!!

وأيضاً: أكل يوماً مع قوم رؤساء، فلما فرغ من الطعام دعا للقوم فقال: أطعمكم الله رؤوس أهل الجنة.

وسمع قائلاً يقول: ما أحسن القمر، فقال: أي والله خاصة بالليل.

وتوضأ يوماً ولم يكف الماء رجله اليسرى فلما قام يصلي وقف على رجله اليمنى ورفع اليسرى، فقيل له: لماذا فعلت ذلك؟ قال: أطراف رجلي هذه غير متوضئة.

ويري "سلامة موسى" أن النكتة السخيفة تضحك الفارغين والسذج ولكننا نحب أحياناً شيئاً من الغفلة نرتاح إليه، أعتبر هذه النكتة الفرنسية: كان أحدهم يسير في حقل فرآه كلب فنبح، وعدا خلفه وخاف الرجل فعدا أيضاً ورآه آخر فقال لا تخف، ألا تعرف المثل الذي يقول أن الكلب النابح لا يعض، فقال الرجل: أنا أعرف المثل ولكن هذا الكلب قد لا يعرفه.

مَن منّا لا يضحك على هذا السخف؟؟ وأيضاً مَن منّا لا يضحك بعشرات النكات السخيفة التي عزيت لجحا؟؟ (سلامة موسي، 2008).

ويظل جحا أكثر الشخصيات إثارة والذي نقل عنه الكثير من الطرائف، واختلف اين عاش جحا والزمن الذي عاش فيه ولكن أقرب الروايات أن أسمه (أبو الغصن دُجين الفرازي) عاش نصف حياته في القرن الأول من الهجرة والنصف الآخر في القرن الثاني،

وعاصر الدولة الأموية ومات في عصر خلافة المهدي، واختلف المؤرخون في جحا فبعضهم قال انه مجنون وأحمق والبعض الآخر قال انه عاقل ولكنه كان يتحامق ليستطيع السخرية من الحكام بحرية تامة وتوفي وعمره 90 عاما.

ومنذ ذلك الحين أخذت الشعوب المتوالية تنسب جحا لها ويقومون بصياغة القصص على محيطهم وحياتهم الاجتماعية ولكن تظل شخصية جحا هي الشخصية نفسها والقصص كثير منها جرى تداوله بنفس الأسلوب

ويقول الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء:

جحا: هو أبو الغصن، صاحب النوادر، دجين بن ثابت، اليربوعي، البصري. رأى دجين أنسا، وروى عن أسلم، وهشام بن عروة شيئا يسيرا.

وعنه: ابن المبارك، ومسلم بن إبراهيم، وأبو جابر محمد بن عبد الملك، والاصعمي، وبشر بن محمد السكري، وأبو عمر الحوضي.

قال النسائي: ليس بثقة.

وقال ابن عدي: ما يرويه ليس بمحفوظ.

وروي عن ابن معين قال: دجين بن ثابت هو جحا.

وأما أحمد الشيرازي، فذكر في "الألقاب" أنه جحا، ثم روى عن مكي بن إبراهيم قال: رأيت جحا الذي يقال فيه: مكذوب عليه، وكان فتى ظريفا، وكان له جيران مخنثون يمازحونه، ويزيدون عليه.

قال عباد بن صهيب: حدثنا أبو الغصن جحا وما رأيت أعقل منه قال كاتبه :لعله كان يمزح أيام الشبيبة، فلما شاخ، أقبل على شأنه، وأخذ عنه المحدثون.

وكذلك وهم من قال: إن أبا الغصن ثابت بن قيس المدني هو جحا.

وقال ابن الجوزي في كتاب (أخبار الحمقى والمغفلين): ويكنى أبا الغصن وقد روي عنه ما يدل على فطنة وذكاء إلا أن الغالب عليه التغفيل وقد قيل إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات والله اعلم.

وعن مكي بن ابراهيم انه يقول رأيت جحا رجلا كيسا ظريفا وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه.

وكان له جيران مخنثون يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه.

وعن أبي بكر الكلبي انه قال خرجت من البصرة فلما قدمت الكوفة إذا أنا بشيخ جالس فى الشمس فقلت يا شيخ أين منزل الحكم فقال لي وراءك فرجعت إلى خلفي فقال يا سبحان الله أقول لك وراءك وترجل إلى خلفك.

وعن عبادة بن صهيب قال قدمت الكوفة لأسمع من اسماعيل بن خالد فمررت بشيخ جالس فقلت يا شيخ كيف امر إلى منزل اسماعيل بن خالد فقال إلى ورائك فقلت أرجع فقال أقول لك وراءك وترجع فقلت أليس ورائي خلفي قال لا ثم قال حدثني عكرمة عن ابن عباس وكان وراءهم أي بين أيديهم قال قلت بالله من أنت يا شيخ قال أنا حجا.

وعن أبي الحسن قال رجل لجحا سمعت من داركم صراخا قال سقط قميصي من فوق قال وإذا سقط من فوق قال يا أحمق لو كنت فيه أليس كنت قد وقعت معه. (ذكرت في اخبار الحمقى والمغفلين لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي)

وقال الإمام الذهبي رحمه الله تعالى في السير:

أبو الغصن: هو الشيخ العالم الصادق المعمر، بقية المشيخة، أبو الغصن، ثابت ابن قيس الغفاري، مولاهم المدني: عداده في صغار التابعين.

ويروي عن: أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، ونافع بن جبير، وخارجة بن زيد الفقيه، وأبي سعيد كيسان المقبري، والقدماء، ورأى جابر بن عبد الله فيما اعترف به أبو حاتم.

حدث عنه: معن بن عيسى، وعبد الرحمن بن مهدي، وبشر بن عمر الزهراني، والقعنبي، وإسماعيل بن أبي أويس، وجماعة. وأخطأ من زعم أنه جحا صاحب تيك النوادر.

ومن أشهر طرائفه ما ذكره الآبي في كتابه (نثر الدرر) قائلاً:

- لما قدم أبو مسلم الخراساني العراق قال ليقطين بن موسى: أحب أن أرى جحا

فتوجه إليه يقطين فدعاه، وقال: تهيأ حتى تدخل على أبي مسلم، وإياك أن تُعلّق بشيء دون أن تستأذن فإني أخشاه عليك، قال: نعم.

فلما كان من الغد جلس أبو مسلم ووجه يقطين إليه فدعاه، وأدخل على أبي مسلم وهو في صدر المجلس ويقطين إلى جنبه، وليس معهما أحد فسلّم ثم قال:

– يا يقطين أيكما أبو مسلم؟

فضحك أبو مسلم ووضع يده على فمه ولم يكن قبل ذلك ضاحكاً.

وهناك مئات النوادر التي تنسب لـ جحا نعرض لبعضها فيما يأتي:

- **رأى جحا سربا من البط قريبا من شاطئ بحيرة فحاول أن يلتقط من هذه الطيور شيئا فلم يستطع لأنها أسرعت بالفرار من أمامه وكان معه قطعة من الخبز فراح يغمسها بالماء ويأكلها فمر به أحدهم وقال له: هنيئاً لك ما تأكله فما هذا... قال هو حساء البط فإذا فاتك البط فاستفد من مرقه.**
- **أضاع جحا خاتمه في داخل بيته فبحث عنه فلم يجده فخرج من البيت وجعل ينظر أمام الباب فسأله جاره ماذا تصنع فقال: أضعت خاتمي في البيت، فقال ولماذا لا تفتش عنه في البيت فأجابه: الظلام حالك في الداخل فلعله قد خرج.**
- **ضاع حماره فأخذ يبحث عنه ويحمد الله شاكراً... فسألوه ولماذا,. تشكر الله؟.. فقال أشكره لأنني لم أكن راكب على الحمار وإلا ضعت معه.**
- **أعطى خادما له جرة ليملأها من النهر، ثم صفعه على وجهه صفعة شديدة وقال له: إياك أن تكسر الجرة، فقيل له: لماذا تضربه قبل أن يكسرها؟ فقال: أردت أن أريه جزاء كسرها حتى يحرص عليها.**
- **مشى في طريق، فدخلت في رجله شوكة فآلمته، فلما ذهب إلى بيته أخرجها وقال: الحمد لله، فقالت زوجته: على أي شيء تحمد الله؟ قال: أحمده على أني لم أكن لابسا حذائي الجديد وإلا خرقته الشوكة.**
- **اشترى جحا عشرة حمير فركب واحدا منها وساق تسعة أمامه، ثم عدّ الحمير ونسى الحمار الذي يركبه فوجدها تسعة، فنزل عن الحمار وعدها فوجدها عشرة، فركب مرة ثانية وعدها فوجدها تسعة، ثم نزل وعدها فوجدها عشرة وأعاد ذلك مراراً فقال: أنا أمشي وأربح حمارا خير من أن أركب ويذهب مني حمار فمشى خلف الحمير حتى وصل إلى منزله.**
- **سألوه يوما: كم عمرك؟ فقال عمري أربعون عاما وبعد مضي عشرة أعوام سئل أيضا عن عمره فقال عمري أربعون عاما فقالوا له: إننا سألناك منذ عشر سنين فقلت إنه أربعون والآن تقول أيضا إنه أربعون فقال: أنا رجل لا أغير كلامي ولا أرجع عنه وهذا شأن الرجال الأحرار... ولو سألتموني بعد عشرين سنة فيكون جوابي أيضا هكذا لا يتغير.**

- هب من نومه يوما وقال لامرأته... أسرعي بالنظارات قبل أن يذهب نومي... فسألته عن السبب فقال إني رأيت رؤيا لطيفة جداً... وأريد أن أمعن النظر في بعض خفاياها...
- جاءه رجل وفي يده بيضه وقال له: إذا حزرت ما بيدي أعمل لك منه أكلة عجة... فأجابه جحا صف شكله ولونه فقال: هو بيضاوي الشكل خارجه أبيض وداخله أصفر قال جحا: حزرت إنه لفت فرغوا داخله وحشوه جزراً ...
- أوصى أهله أن يدفنوه يوم مماته في قبر قديم ولما سألوه عن السبب أجابهم: إذا جاءني ملكا الموت ليسألوني أجيبهما أني قديم العهد في هذا القبر وأني سئلت سابقاً... وإذا نظرا إلى قبري رأيا فيه مصداقاً لقولي فيتركاني وشأني وهكذا أتخلص من شديد سؤالهما على أهون سبيل.
- ضاع حماره فحلف أنه إذا وجده يبيعه بدينار، فلما وجده جاء بقط وربطه بحبل وربط الحبل في رقبة الحمار وأخرجهما إلى السوق وكان ينادي: من يشتري حمارا بدينار، وقطا بمائة دينار؟ ولكن لا أبيعهما إلا معا.
- طبخ طعاما وقعد يأكل مع زوجته فقال: ما أطيب هذا الطعام لولا الزحام فقالت زوجته: أي زحام إنما هو أنا وأنت؟ قال: كنت أتمنى أن أكون أنا والقدر لا غير.
- أهدى له رجل خاتما بدون فص، فقال له جحا: الله يعطيك في الجنة بيتا بدون سقف..
- كان مسافراً مع جماعة، ونزلوا للراحة في مكان، ثم أرادوا استئناف السفر، فطلب بغلته فأحضرت له، فوضع رجله اليمنى في الركاب وقفز فجاء ركوبه مقلوبا، فضحك من رآه، فقال لهم: أنا لم أركب بالمقلوب ولكن البغلة عسراوية.
- استعار جحا يوما من جاره قدرا وتأخر في رده فطلبه جاره منه فأعطاه القدر وآخر صغير فقال له جاره ما هذا قال لقد ولد عندي البارحة فسر جاره وأخذ القدر.

وبعد فترة استعار جحا من جاره قدرا اكبر وأغلى ثمنا وبقي القدر عنده فترة من الزمن وبعدها سأله جاره عن خبر القدر فقال جحا رحمه الله مات قبل أيام فغضب جاره وقال كيف يا جحا أو يموت القدر فقال جحا تصدق بالولادة وتكذب بالموت؟

- **حُكم على جحا بالإعدام، فقالوا له: ما هي رغبتك الأخيرة هل تشتهي أن تأكل شيئا قبل أن تموت؟ قال: نعم، اشتهي البطيخ. فقالوا له: ولكن هذا ليس موسم البطيخ. فقال جحا: انتظر موسمه، فلست مستعجلاً.**
- **ركب جحا على بغلته يوما، فأخذت به في غير الطريق الذي أراده فلقيه صديق له، فقال: أين تريد يا جحا؟ فقال: في حاجةٍ للبغلة.**
- **كان جحا جالساً مع تيمورلنك ذات يوم. فقال تيمورلنك: إن الألقاب التي فيها اسم الله كالواثق بالله والمنتصر بالله تعجبني.. فهلا اخترت لي اسماً مثل ذلك يا جحا؟؟ فقال جحا وقد ارتسمت على وجهة ابتسامة ساخرة: "اخترت لك اسم العياذ بالله"**
- **دخل جحا يوماً إلى بستان أثناء غياب صاحبه وراح يقطف ما يقع تحت يده من الأثمار حتى ملأ سلته ولما هم بالخروج رأى البستاني عائداً فارتبك وخاف فقال له البستاني:**

ما الذي تفعله هنا؟

فقال متلعثماً: لقد حملتني العاصفة التي هبطت مساء أمس فألقتني هنا غصباً عني.

فقال: حسناً ومن الذي قطف ما في سلتك؟

فقال: كان الهواء الشديد يتلاعب بي ويلقي بي هنا وهناك فأتمسك بما يقع تحت يدي من الخضر والأثمار فتقطع وتظل في يدي.

قال البستاني: وهذا أحسن ولكن من الذي وضع ذلك في السلة حتى ملأها.

فلم يستطع جحا الجواب، ولكنه قال: وأنا أفكر في هذا أيضاً ولكنني أصدقك القول بأني أبحث منذ رأيتك عن جواب فلم أجده.

- **كنت ماراً على اصدقاء لي يوماً وقد ركبت حماراً وفجأة وجدت ذيل الحمار أمامي ورأسه خلفي فوجدت أصدقائي يضحكون، فقلت لهم: مالكم تضحكون؟ إني لم أركبه خطأ ولكن هذا الحمار العنيد رأسه مكان ذيله، وذيله مكان رأسه!**
- **أراد جحا أن يتزوج فبنى داراً تتسع له ولأهله وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ويجعل خشب الأرض على السقوف فراجعه النجار دهشاً، ولم يفهم ما يعنيه.**

- **فقال جحا: أما علمت يا هذا أن المرأة إذا دخلت مكاناً جعلت عاليه واطيه اقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج!**
- **كنت في السوق يوماً فنزلت عن حماري وتركت جبتي على ظهره وأوصيته أن يحرسها حتى أعود فلما رجعت إليه لم أجد جبتي، فأهويت بعصاي على ظهره سائلاً إياه: أين جبتي أيها الحمار الأحمق؟ فلما تعبت من طول السؤال أخذت بردعته ووضعتها على ظهري قائلاً له: والله لا أعطينك بردعتك حتى ترد على جبتي أيها العنيد.**
- **وكان في منديله فاكهة فسأله بعضهم ما هذا الذي في منديلك يا جحا فقال: لا أقول لكم ولكن أعطيكم أكبر خوخة إذا عرفتموه.**

قال السائل: إنه خوخ.

فانطلق قائلاً: أي ملعون قال لكم إنه خوخ؟

- **ذهبت إلى السوق يوماً لاشتري حماراً آخر فبينما أنا سائر في الطريق إذ قابلت صديقاً فقال لي: إلى أين أنت ذاهب يا جحا؟**

فقلت له: إني ذاهب إلى السوق لاشتري حماراً.

فقال: قل إن شاء الله يا رجل.

فقلت: لِمَ أقل والنقود معي والحمير في السوق؟

فما إن تركته وسرت حتى قابلني اللصوص وسرقوا ما معي من مال فرجعت خائباً فقابلني صاحبي قائلاً:

أين الحمار الذي اشتريته؟

فقلت له: (وقد وعيت الدرس) سرقوا نقودي إن شاء الله!

- **أهدى فلاح جحا أرنباً فأكرمه جحا إلى أن انصرف وعاد في الأسبوع الثاني فلم يعرفه جحا فسأله: من تكون أنت؟**

فقال: أنا يا سيدي الذي أحضرت الأرنب منذ أسبوع.. أحسنت مقابلته.. وبعد بضعة أيام جاءه أربعة فلاحين فسألهم: من أنتم؟

فقالوا: نحن جيران صاحب الأرنب فرحب بهم وأكرمهم.

وبعد أسبوع جاءه عدد آخر من الفلاحين وأخبروه أنهم جيران جيران صاحب الأرنب، فنهض في الحال وأحضر لهم ماعوناً فيه ماء ساخن وقال: تفضلوا فلما أرادوا أن يأكلوا استغربوا ما وجدوا فقالوا: ما هذا ياسيدنا؟

فقال: هذا مرق مرق الأرنب يا جيران جيران صاحبه!

- **في الحكايات أن جحا حمل أوزة مشوية إلى الأمير، وغلبه الجوع ورائحة الشواء في الطريق، فأكل إحدى رجليها ثم وضعها بين يدي الأمير، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبت؟ قال: لم تذهب إلى مكان، وإنما الأوز كله برجل واحدة في هذا البلد، ثم تقدم بالأمير إلى نافذة القصر وأشار إلى سرب من الأوز قائم على قدم واحدة كعادته في وقت الراحة، فدعا الأمير بجندي من حرسه وأمره أن يشد على سرب الأوز بعصاه، وما كاد يفعل حتى أسرع الأوز يعدو هنا وهناك على قدميه.قال الأمير: أرأيت؟ إن أوز هذا البلد أيضا خلق بقدمين ولم يخلق بقدم واحدة!. قال جحا: مهلا أيها الأمير... لو هجم حارسك على إنسان بهذه العصا، لجرى الإنسان نفسه على أربع.**

obeikan.com